مجلة الحكمة للدراسات الإجتماعية ISSN :2353 - 0529
المجلد2 ، العدد3، (جانفي2014) EISSN : 2600-643x

" السّوسيولوجيا " بين الاغتراب و التّأصيل .

{ رؤية نقدية نحو تأصيل السّوسيولوجيا في المجتمع الإسلامي العربي} .

أ/حيدرة فتيحة (باحثة جامعية)
جامعة الجزائر-2-

Résumé :

La Sociologie ou les Sciences Sociales est l'une des branches les plus importantes des Sciences Humaines.

La Sociologie s'intéresse à l'étude des phénomènes et des incidents sociaux de l'Homme, car l'homme est un être civilisé par caractère.

Mais la problématique fondamentale qui empêche à étudier les phénomènes sociaux au sein de nos sociétés est la non-existence d'une Sociologie indépendante de la Sociologie occidentale. Nous constatons que toutes les études qui ont été faîtes dans les sociétés Arabo-musulmanes, se ne sont que des traductions littérales de la Sociologie occidentale par ses critères, valeurs et méthodes, ce qui empêche encore de réaliser une étude objective qui relève la réalité dans notre société. Tout ça faire pensé de la création d'une sociologie purement Arabo-musulmane par la volonté de faire rattraper le retard.

Le chercheur dans le domaine de la sociologie est qui choisit d'étudier une société quiconque doit connaître parfaitement sa culture et son peuple car il aura la capacité de déchiffrer les signes culturels et analyser les phénomènes et tout ce qui se passe dans cette société. Ce qui demande une méthode propre et spécifique à nos sociétés.

مقدمة:

لما كانت الثقافة متميّزة بقابلية التوسع و الانتشار، أي أنّ « الثّقافة معديّة ».و هذا يعني أنّ العادات و القصص المحليّة و الأديان و الأعراف و مواد التّزيّين كلّها بإمكانها الانتشار من ثقافة مجتمع إلى ثقافة مجتمع آخر، كانتقال المزروعات من منطقة إلى أخرى أو من مناخ إلى مناخ آخر. فانتقال الثقافة من شعوب إلى أخرى،

حصل في التّاريخ مرات لا تعد و لا تحصى، ربما لتوافق الثقافتين أو وجود مصالح[1] و دوافع في الثّقافة المستقبلة (الجديدة).

و لهذا، فالوضع الذي آل إليه الحال في عصرنا، هو أننا نعيش موجة هائلة من المناهج، و قد صدق الكاتب حين وصفها بمثابة:« غابة من المناهج جعلتنا نعيش بالفعل، ما يشبه الأولمبياد، أو (السّيرك) النّقدي...»، و لكن الإشكال ليس في وجود هذه الغابة، بل في كوننا هرعنا إليها و سرنا متسرعين و مسرعين منبهرين تغرينا المظاهر و الألوان، كالفراش نقفز هنا و هناك، فلم نر إلاّ الأشجار و الأغصان، فحجبت الشّجرة الغابة [2]. فوجدنا أنفسنا نصول و نجول بين أضغاث الأحلام.

... و لكن من غريب و عجيب المفارقات أنّنا نتحدث عن ثقافة أو علوم اجتماعية للمجتمع الإسلامي العربي، بمعايير و مناهج مستوحاة من ثقافة علمانية، تفصل الدّين و الأخلاق عن العلم و المعرفة ! و تعتبر الأخلاق مجرّد سلوكات وضعية لا معيارية ! و أنّ السلوكات الاجتماعية مصدرها هو المجتمع، لا مصدر آخر خارجي (ديني أو عقلي)، فهي لا تمثل ما يجب أن يكون عليه الفرد في المجتمع، بل أنّها تمثّل ما هو كائن فيه. و عليه نجد أنفسنا حائرين على الرّد على التساؤلات التالية :

- هل نستطيع أن نؤسّس لسوسيولوجيا إسلاميّة عربية بمعايير غربيّة مستوردة ؟
- و ما هي انعكاسات تطبيق ذلك على ثقافتنا و شخصيتنا الإسلامية العربية ؟
- و ما هي السُّبل للتفرّد بسوسيولوجيا من وحي مجتمعنا الإسلامي العربيّ

1. ضبط مفهوم السّوسيولوجيا (Sociologie) و ظهور المصطلح :

مصطلح السّوسيولوجيا : "Sociologie" يتألف من شطرين هما : "Socio" بمعنى المجتمع، و "Logie" الّذي يعني علم { الدّراسات ذات المستوى الرفيع من العمق و الدّقة }، و منه كان مركب كلمة "Sociologie" يعني: دراسة المجتمع دراسة تتميّز بالدّقة و التجريد و التعميم. و قد عرّفه " ماكس فيبر " "Max weber" بأنّه: « العلم الّذي يسعى إلى فهم الفعل الاجتماعي و تفسيره لكي يصل إلى تفسير سببي لمساره و نتائجه »[3] .

---

[1] - كليفورد غيرتز: تأويل الثّقافات، ترجمة: د.محمد بدوي، ترجمة: د.محمد بدوي، مراجعة: الأب بولس و هبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2009م، مقدمة المترجم، ص 16.

[2] - نجيب العوفي :ظواهر نصيّة : نقلا عن : سعد البازعي: الاختلاف الثقافي و ثقافة الاختلاف ، المركز الثقافي العربي،(بيروت، لبنان)، (الدار البيضاء، المغرب)، ط1 ، 2008م، ص 307.

[3]- د.مصباح عامر : علم الاجتماع : الرّواد و النظريات ، دار الأمة ، الجزائر ، ط1 ، 2005م ، ص14 .

و هذا يعني أنّ علم الاجتماع يبحث الأسباب المؤديّة إلى حدوث مختلف الظواهر و الحوادث الاجتماعية بغرض تفسيرها و دراسة نتائجها دراسة علمية دقيقة يمكن أن تصاغ في شكل قوانين علمية.

_فالسّوسيولوجيا: علم يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية للإنسان من حيث هو إنسان، و هو: « علم المجتمع و القوانين الّتي تحكم تطوّره »[1]. و يعود ظهور النظريات الاجتماعية (السوسيولوجية) إلى زمن قديم، إذ حاول القدماء فهم حياة البشر و ما يؤثر فيها منذ ديمقريطس و أبيقور، ثم تلاهم في ذلك سقراط و أفلاطون و أرسطو.

و عند الغربيين ظهرت أيضا نظريات* اجتماعية مبنية على أسس دينية ممثّلة للكنيسة في الأزمنة الإقطاعية، و كان من دعاة ذلك " توما الاكويني " و " سانت أوغسطين". و مع زوال الإقطاعية، ظهرت الرأسمالية المعارضة للنظرة اللّاهوتية، ثم ظهرت محاولات مع (روسو و مونتيسكيو) في القرنين السابع عشر و الثامن عشر في شكل " فلسفة للتاريخ ". و بعدها جاء التصور الجدلي عند "هيغل" و الّذي يعتبر ذروة الفكر الاجتماعي في فترة ما قبل الماركسية، ثم جاء من بعده "أوغست كونت" و الّذي يعتبر عند الغربيين أوّل من صكّ مصطلح « السوسيولوجيا »"Sociologie"

أي " علم الاجتماع "، و الّذي يهدف إلى الكشف عن القوانين العلمية الثابتة و الّتي تحكم الظواهر الاجتماعية على شاكلة القوانين الّتي تحكم العلوم الطبيعية التجريبية [2]. و قد ظهرت عدة فروع لعلم الاجتماع في المجتمع الغربي منها: { علم الاجتماع الريفي، علم اجتماع الأسرة، علم الاجتماع الصّناعي، الميكروسوسيولوجيا، علم الاجتماع التربوي، ... إلخ } [3].

وممّا هو جدير بالذكر هو إسهامات " ابن خلدون " و الّتي يمكن تلخيصها حول (علم العمران البشري) * في المواطن التالية:

---

[1]- م. روزنتال ، ب.يودين : الموسوعة الفلسفية ، ترجمة : سمير كرم ، دار الطليعة ، بيروت (ط1 ،1974م)،(ط2 ، 1985م) ، ص300 .

*.النّظرية {Théorie} (جمعها النّظريات) : هي مجموعة أفكار و فرضيات منظمة و مترابطة ، انبنت على مجموعة من البحوث أو الملاحظات أو الدراسات التطبيقية أو النظرية الّتي تستطيع تفسير ظاهرة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية و يمكن تعميمها على حالات مشابهة .{ انظر : د.مصباح عامر : علم الاجتماع (الرواد و النظريات) ، ص 18 } .

[2] - م.روزنتال ، ب.يودين : الموسوعة الفلسفية ، ص (300، 301) .

[3] - م.روزنتال ، ب.يودين : الموسوعة الفلسفية ، ص (302) .

*يقصد بالعمران البشري في فكر " ابن خلدون " التجمع و التفاعل الاجتماعي بين مختلف عناصر المجتمع و البنى المشكّلة له ، بغرض تلبية ضرورات حياة الطبيعة الاجتماعية للبشر ، و أنّ الباحث

- يدرس علم العمران البشري التجمعات البشرية .
- العمران البدوي و يتلخص في دراسة القبائل و الأمم الوحشية .
- الدولة العامّة و الخلافة و مراتب السلطة و الملك.
- دراسة التّغير الاجتماعيّ.
- العمران الحضري و الأمصار و البلدان .
- الكسب و الصّنائع[1] .

و بهذا اعتبر " ابن خلدون " عند المؤرخين الإسلاميين و العرب، مؤسّسا " لفلسفة التاريخ " و " لعلم العمران البشري ".

2. الصعوبات و المساوئ في تطبيق السّوسيولوجيا الغربية في مجتمعاتنا :

إنّ ما تغفله العلوم الاجتماعيّة الغربية هو الجوانب الميتافيزيقية للثقافة، بل و حتى الدراسات الاجتماعية في الشّرق. إذ طغى على هذا البحث طابع " تشييء الظاهرة الاجتماعية "، أي دراستها دراسة جّافة خالية من كل الجوانب الروحية و الميتافيزيقية، و هذا ما أغفل الكثير من الجوانب المتعلقة بالرموز الثقافية للمجتمعات، و جعل الباحث السوسيولوجي يدرس مختلف الظواهر الاجتماعية دراسة عرجاء، غير موضوعية. ليس لأنّها تكتسي طابعا ذاتيا بل لأنّها غضت النظر عن الكثير من الأمور غير المادية و الخفية.

و يعد هذا الطرح المتناول ل: (اللّمسات الميتافيزيقية للرموز الثقافية)، طرحا جديدا و حديثا و في غاية الجدّة في مباحث السّوسيولوجيا الإسلامية العربية، بل بالأحرى، إنّما هو طرح " إسلامي عربي" * ،لأنّه يجد صدى لها في الرؤيّة " الابستموجية الإسلامية " [2] .

الاجتماعي يكمن دوره في تتبّع أحوال التجمع البشري و ما يطرأ عليه من تغيرات و تطورات { انظر : د.مصباح عامر : علم الاجتماع : الرواد و النظريات ،ص 31 } .

[1] - د.مصباح عامر : علم الاجتماع : الرواد و النظريات ، ص 40 .

*يفضل البعض أن نطلق مصطلح " إسلامي عربي " على الطرح، أكثر من مصطلح " عربي إسلامي "، و هذا يرجع إلى أنّ تأثير الإسلام كان أوسع و أكثر تأثيرا من العروبة فقط، كما أنّ تأثير الإسلام قد امتد إلى أبعد مدى متجاوزا حدود الدول العربية.

1. د.محمود الذّوادي: الثقافة (بين تأصيل الرؤية الإسلامية و اغتراب منظور العلوم الاجتماعية) دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، 2006 م ص 265 .

[2]- د.محمود الذّوادي: الثقافة (بين تأصيل الرؤية الإسلامية و اغتراب منظور العلوم الاجتماعية) دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، 2006 م ص 265 .

كما أنّ الدراسات الاجتماعية الغربية تركّز في دراستها دوما على معالم ثقافتها: { (متخلّف- قوي)، (مسيطر- مسيطر عليه)،... إلخ }. معتمدة في ذلك على الأبعاد المادية { الصناعيّة ، الاقتصادية ، التّنمية المادية، رأس المال، ... إلخ }، و الّتي هي حكر عليها فقط، متجاهلة الأبعاد و الهوية الخاصة بالشعوب و المجتمعات الأخرى من الأمم. فنحن إلى جانب تأخرنا المادي، نشتكي أيضا من تزعزع الأسس النفسية لشخصيتنا، و هذا ما يطلق عليه البعض من السّوسيولوجيين " التخلّف الآخر ". فغض الدراسات السوسيولوجية الغربية النظر عن هذا الجانب يرفع الكثير من البراءة عنها في دراسات المجتمعات المتخلّفة[1].

كما أنّ اعتمادنا على الغرب في دراساته و بحوثه الاجتماعية، يلزمنا بعملية ترجمة لهذا التّراث. و لكن التّرجمة كثيرا ما تخون الهدف، و تحتاج إلى المراجعة، و ربما إلى تكييف تلك المعطيات مع طبيعة المجتمع الجديد و حيثياته الخاصة به. كما أنّ الظواهر الاجتماعية تختلف أسبابها ما بين المجتمعات، فالإدمان في المجتمعات الغربية على المخدرات مثلا ،غالبا ما يكون ناتجا عن فراغ روحي أو نقص في الوازع الدّيني أو ناتجا عن عوامل نفسية، أمّا في المجتمعات الإسلامية العربية فانه كثيرا ما يكون نتيجة الأوضاع المتدنية و المزرية على المستوى الاقتصادي و الاجتماعي و المستوى المعيشي.

فحتى و إن كانت كلّ العوامل تتقاسمها كل المجتمعات، فإنّ الأمر يختلف حسب قوانين كل دولة، لأنّ هناك دولا تجيز قدرا معينا من تعاطي أو حيازة المخدرات، كما أنّ هناك دول أخرى لا تعاقب الأشخاص إلاّ إذا عثر بحوزتهم على قدر يفوق عتبة معينة من الممنوعات. و بالتالي فهناك فرق بين المجتمعات الّتي تقبل بحد أدنى من تعاطي الممنوعات و دول أخرى تعتبر هذا أمرا محرّما إطلاقا لا يجوز الطّعن فيه قطعا.

و مع ظهور النزعة الاستعمارية في أوربا، ظهرت نزعة أطلق عليها « التمحور الثّقافي العرقي ». إذ أصبح الرجل الأوربي ينظر إلى الثقافات الأخرى نظرة دونية معتبرا إيّاها ثقافات همجيّة و أقلّ تحضّرا. و لم يكن بمقدور هذا الرجل الأبيض تصوّر إمكانية وجود حضارة خارج حضارته، أو وجود شخص آخر في موطن ما يتساوى معه في درجة الإنسانية. إلاّ أنّه و بالتعرف على ثقافات الغير من المجتمعات الأخرى، ظهر ما يدعى (بالنسبية الثقافية). فهذه الأخيرة تقر بعدم إمكانية الحكم على ثقافة ما بأنّها أسمى أو أدنى من تراث غيرها من الأمم. فبعض الأنثروبوجيون مثلا، يرفضون تصنيف التراث في سلم افتراضي أو اعتبار بعض المظاهر الأنثروبولوجية في مجتمع ما أحسن من مظاهر أنثروبولوجية في مجتمع

[1] - محمود الذّوادي: الثّقافة (بين تأصيل الرؤية الإسلامية و اغتراب منظور العلوم الاجتماعية) ص (266 ، 267).

آخر[1]، مثلا كالحكم على الأسرة النواة في مجتمع ما على أنّها أفضل من الأسرة الممتدة في مجتمع آخر.

و على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، نجد الباحث الكوري " دونغ إل تشو {Dong-il-CHO}، يجد إشكالا مماثلا حين تمعّنه في تقسيم العصور الأدبية في الدراسات المقارنة، حيث أنّ ما جلب انتباهه هو تصنيف هذه الآداب وفقا لتاريخ الغرب الأوروبي (قديم، وسيط، حديث)، دون الأخذ في ذلك تصنيفات بقية الآداب العالمية الأخرى، و ممّا لا شك فيه، هو أنّ هذه التقسيمات لا تنطبق على بقية الآداب الأخرى، و هذا كله ناتج عن المركزية الأوربية [2]. فمثلا تاريخ الآداب الآسيوية و الإفريقية يختلف اختلافا كليا عن هذا التاريخ. و ربما ما يقودنا إلى هذا الأمر هو ما يثبته المفكر الياباني (كنزا بورو أوي)* {Kenzaburo Oe} ،و الّذي يرى بأنّ الواقع الفكري و النقدي الياباني اليوم لازال و منذ عدّة عقود رهين الثقافة الغربية و طروحاتها و الّتي تمر عليه في شكل موضات آنية و عابرة، بل و لم يقف الأمر عند هذا الحد، أو يقتصر على هذا، بل امتدّ أيضا هذا النزوح إلى طريقة قراءة الثقافة اليابانية.

فحتى التطور التكنولوجي في عالم المعلومات و المواصلات يرجئه البعض إلى الرموز الثقافية و هذا نظرا لثقل تأثير هذه الأخيرة في حياة و تفكير و توجيه سلوكات الإنسان[3] .

كما أنّه يعترف –أوي- بأنّ مدرسة الكتاب في اليابان بعد الحرب العالمية الثانية، كانت تعتمد منهجا أوربيا في دراسة الفكر الياباني و ثقافته. و ممّا تمخّض عن ذلك عدم قدرة اليابانيين على تأسيس نظرية ثقافية تخصهم. فرغم الزخم الهائل من الانبهار و التحمّس و التفاعل، إلاّ أنّها لم تكن أفكارا تمت بصلة للثقافة اليابانية بل أنّها أصبحت شيئا فشيئا تتضح بأنّها شيء برّانيٌّ عن ثقافتنا المحلية، و توحي بنوع من الاستغراب عن الواقع، و ربّما هذا ما تختزله التّساؤلات التالية الّتي طرحها المفكر الياباني (جونيشيرو تا نيزاكي) في قوله: « ماذا يمكن أن تكون أشكال مجتمعنا؟ و إلى أيّ حدّ يمكن أن تكون مختلفة عماّ هي عليه اليوم لو أبدع الشّرق و الغرب، كلّ على حدة، و بشكل مستقل حضارات علمية مختلفة ؟ »[4] .

---

[1] - كليفورد غيرتز: تأويل الثقافات، ترجمة : د.محمد بدوي، مراجعة : الأب بولس وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2009م، ص15.

[2] - سعد البازعي: الاختلاف الثقافي و ثقافة الاختلاف، ص 107.

*كنزا بورو أوي : {kenzaburo oe} : حاصل على شهادة نوبل للآداب عام 1994 م .

[3] - د.محمود الذّوادي : الثقافة (بين تأصيل الرؤية الإسلامية و اغتراب منظور العلوم الاجتماعية)، توطئة ، ص 08 .

[4] - سعد البازغي : الاختلاف الثقافي و ثقافة الاختلاف ، ص(105 ،106) .

ومنه فأسمى غاية تطمح إلى تحقيقها علوم الإنسان لا تتمثل في تكوين الإنسان، بل إنّما تتمثل في تذويبه و صهره.

و تسعى عملية التحليل الاثنوغرافيّ بلوغ ثوابت تختصر التنوع الأمبريقي لمختلف المجتمعات. و هذه المبادرة تشجّع على مبادرات أخرى. فهذا يفرض على علوم الطبيعة محاولة دمج التراث بالطبيعة، أي إدماج مظاهر الحياة في ظروفها الفيزيائية- الكيميائية و ربما يفهم من هذا تفسير بعض الباحثين بحوثهم بعلم الأعراق[1] .

إذ يرى مؤرخو الفكر الغربي الحديث أنّ معالم " هوية الفكر الغربي"، قد بدأت بالكشوفات الجغرافية، و بعبور المحيط الأطلسّي مع " كريستوف كولومبس "، و اكتشاف أطلنطس الجديدة في إطار خلفية التبشير المسيّحي. و من هنا اتضح وجه أوربا في سعيها إلى تأسيس هوية كونية * [2].

فالتمركز الغربي ينطوي في جوهره على وعي عنصري تجّاه الجنس الملوّن، متشجّعا بأسطورة قوتّه تجاه الآخرين و الصادرة عن نرجسّيتة الغربية و الّتي تحمل هيمنة كامنة و مكبوتة في شكل علاقة أحادية إقصائية بين الآخر و الأنا [3]. حتى أصبحنا في عصرنا نخضع لعولمة شبه إلزامية على كل المستويات * و الأصعدة ثقافيا ، سياسيا ، واقتصاديا، ... إلخ .

و في إطار دور الترجمة** و ما لها من فعالية في ترسيخ الرموز الثّقافية في المجتمعات الأخرى المستقبلَة، إلاّ أنّ هناك إشكالية مفهوم المصطلح، فمثلا لو تحدثنا

---

[1] - كليفورد غيرتز : تأويل الثقافات ، ترجمة : د.محمد بدوي ، ص 651 .

*يورد طه عبد الرحمن عددا من الاعتراضات على مزاعم كونية الفلسفة لخصها في النّقاط الأربع التالية : {ارتباط الفلسفة بالسياق التاريخي الاجتماعي ، ارتباط الفلسفة بالسياق اللّغوي ، الاختلاف الفكري بين الفلاسفة ، التصنيف القومي للفلسفة } ، { انظر : بوزبرة عبد السلام : طه عبد الرحمن و نقد الحداثة ، جداول بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2011 ، ص (147 ، 148) } .

[2] - بوزبرة عبد السلام : طه عبد الرحمن و نقد الحداثة ، ص 145.

[3] - بوزبرة عبد السلام : طه عبد الرحمن و نقد الحداثة ، ص 153.

*فمثلا ، ونظرا للطّابع الشمولي للأمم المتحدة و نظرا لعولمة القضايا المطروحة فيها ، يرى البعض بأنّه لابد من ضرورة جعل النص المترجم أكثر ملائمة مع مقتضيات اللّغة المترجم إليها باستغلال إمكانياتها المتراكمة ، فهناك دور كبير للمخزون الثقافي في عملية التكييف ، و أنّ الهدف المرجو من النص في الأمم المتحدة، هو تلقي المعارف عن طريق البلاغ { انظر : د. محمد الديداوي : الترجمة و التواصل (دراسات تحليلية عملية لإشكالية الاصطلاح و دور المترجم)، المركز الثقافي العربي، (بيروت ، لبنان)، (الدار البيضاء، المغرب)، ط1 ، 2009م ، ص 15 }.

** فلا غرابة أنّ الجمعية الأمريكية للتّوراة على سبيل المثال، تعطي اهتماما متميّزا للترجمة و وسائطها المتنوعة، على غرار اهتمامها بدور الترجمة عامّة ، فهذه الجمعية تسعى إلى نشر ثقافتها و رموزها الثقافية على صعيد عالمي و تهتم بتمثيل كلّ القصص الّتي وردت في التّوراة بغرض إيصالها إلى كلّ المجتمعات، معتمدة في ذلك على محاولة تكييفها مع الثقافات المختلفة. كما تقوم هذه الجمعية أيضا

عن (الأخلاق) باعتبارها مفهوما غربيا، فإنّها تعني الأخلاق الوضعية ، مادام المجتمع علمانيا لا معيارية، أمّا (الأخلاق) في المجتمعات المسلمة، فإنّها تعني الأخلاق المستوحاة من ديننا الحنيف، فالحسن منها ما أمر به الشرع، و القبيح منها ما قبّحه الشّرع.

و ممّا يجدر الإشارة إليه من أسباب تلزمنا بضرورة استقلالية بحوثنا، هو ما أشار إليه " بورديو " الّذي كشف عن التناقضات الّتي يعيشها المثقف الملتزم في المجتمع الغربي، حيث يرى بأنّ علم الاجتماع قد أصبح مجرد امتداد للسياسة في عصرنا، بل أنّ حتى وسائل الإعلام الثّقافية (كالتلفزيون مثلا)، أصبحت في حالة تواطؤ تامّ مع المنظومة السياسية

و الاقتصادية المهيمنة [1]. فإذا كان السّوسيولوجي أو المفكّر يرفض التسييس الّذي تركن إليه مختلف مجالات الحياة، فإنّ مجتمعاتنا تخضع لهذا التطبيع السياسوي بطريقة غير مباشرة من جرّاء استوراد أنماط العيش و المنظومات الفكرية و الاجتماعية، و هذا سبب آخر يحز في نفس الفرد المسلم العربي لإيجاد نهج خاصّ به و بمنظومته الفكرية الخاصة به.

3.انعكاسات تطبيق السّوسيولوجيا الغربية في مجتمعاتنا الإسلامية العربية :

(ا).ظاهرة الاغتراب الثقافي أو الاستلاب الثقافي {L'aliénation culturelle} :

إنّ الإنسان المغترب ثقافيا و اجتماعيا هو الشخص الّذي تسيطر عليه رموز ثقافات المجتمعات الأجنبية، إذ يصبح متحدثا بلغة الآخر، مفكرا بثقافته الدخيلة، و سالكا لعاداته و تقاليده يعيش حالة من الاغتراب في ظل تمزق وحدة الهوية. بل يصبح شخصا خجولا من الظهور بثقافته المحلية أو التكلم بلغته * الأصلية، فيأخذ منحنى يزيد من ابتعاده أكثر فأكثر عن ثقافته الأمّ. و هذه الزحزحة هي الّتي ترسّخ الرموز الغربية أكثر فأكثر و تجعلها أكثر تجذّرا في الأجيال المقبلة. و يرى السّوسيولوجيون بأنّ عملية تغيير هذه الرموز الثقافية عملية بطيئة و متجذّرة لأنّها:

باستخدام مختلف التكنولوجيات و أرقى التقنيات الحاسوبية و الالكترونية في إنتاج الترانيم التوراتية، و كلّ هذا بغرض فرض وجود اليهود و اكتساحهم لمختلف المجالات (انظر : د. محمد الديداوي : الترجمة و التواصل (دراسات تحليلية عملية لإشكالية الاصطلاح و دور المترجم)، ص 130.)

[1] - نصر الدين بن غنيسة : عن أزمة الهوية و رهانات الحداثة في عصر العولمة، منشورات ضفاف، (بيروت ، لبنان)، منشورات الاختلاف، (الأبيار، الجزائر) ، ط1 ، 2012 م ، ص 107 .

*« إنّ لغة من اللّغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها، بحدود صفاتها، في أسمائها و أفعالها و حروفها و تأليفها و تقديمها و تأخيرها » { نقلا عن: د. محمد الدّيداوي: الترجمة و التواصل ، ص 09}.

« تمثل عمق الإنسان ذاته »، فمتى انغرست هذه الرّموز ، أضحى من المتعذر إن لم نقل من المستحيل استئصالها من أعماق و صلب هذا الكائن الثقافي[1] .

و هذا ما أدى إلى نوع من اغتراب المناهج الإسلامية العربية : « فمن المعروف
أنّ زمن المثاقفة الحاصلة في العالم العربي، منذ منتصف القرن الماضي، ... قد اتّسم
بطغيان الهيمنة الغربية في مختلف مجالات الوجود المجتمعي [2] ».

(ب). **غزو العقــول :**

و لمّا كان سلوك الإنسان ناتجا عمّا ترسّخ في عقل الفرد من رموز ثقافية، فإنّ أكثر ما نخاف عليه منه في هذا العقل هو غزوه (غزو العقول)، فإذا كان العقل هو محل الرموز الثقافية (لغة، فكر، دين، ...)، فإنّ أكثر و أخطر ما يمكن أن يعتلّ به هذا العقل هو " الغزو الأخطر" الّذي يعتريه و يجعله يحيد عن جادة الصواب و ما ألفه، إلا و هو (غزو الرموز الثقافية) [3] . لأنّ هذا الأخير إنّما هو غزو شامل لكلّ مناحي شخصيّة الفرد و الّتي تحمل أبعادا و انعكاسات اجتماعية على المدى القريب و المدى البعيد * .

(ج). **العولـمة الثّقافيـة :**

إذا كانت العولمة اليوم تفرض علينا إشكالية التعامل معها، فإنّ أهم جانب يجب مناقشته هو العولمة الثقافية ، بحكم أنّ الرموز الثقافية تمس عديد جوانب الإنسان الحياتية : المعرفة، العادات الثقافية، اللّغة، العلم، الفكر، ... إلخ. كما أنّ العالم اليوم قد أختزل في قطر واحد نتيجة اكتساح الثّورة المعلوماتية لكلّ مناحي الحياة و خاصة جانب العولمة الثقافية و غزوها الواضح[4].

(د). **حدوث خلل على مستوى التوافق في عقلية الإدراك و الفهم و التواصل:**

كما أنّ هذا التّفاوت في الرموز الثقافية بين مختلف المجتمعات إذ منها ما هي رموز ثقافية قوية و أخرى ضعيفة ، فهذا الفارق هو الّذي يسبب نوعا من الخلل

---

[1] - د. محمود الذّوادي : الثقافة (بين تأصيل الرؤية الإسلامية و اغتراب منظور العلوم الاجتماعية)، ص (222 ، 223) .

[2]- كمال عبد اللّطيف : نقلا عن : سعد البازعي : الاختلاف الثقافي و ثقافة الاختلاف ، ص 307.

[3] - د. محمود الذّوادي: الثقافة (بين تأصيل الرؤية الإسلامية و اغتراب منظور العلوم الاجتماعية) ، ص 11 .

*فالشخصية لها تأثير مباشر على المدى القريب كاقتداء الغير بها و تقليد و إتباع نمط سلوكياتها بسلبياتها و ايجابياتها. و في الوقت نفسه لها تأثيرات غير مباشرة ذات تأثير بعيد، كانتقال رموزها الثقافية إلى الأجيال اللاّحقة عن طريق التربية.

[4] - د. محمود الذّوادي : الثّقافة (بين تأصيل الرؤية الإسلامية و اغتراب منظور العلوم الاجتماعية) ، (توطئة) ، ص 07 .

على مستوى عملية التّوافق بين أفراد هذه المجتمعات في التّحاور و التّقارب ، ممّا قد يؤدي إلى انقطاع أوشاج التواصل فيسود الصراع [1] بين حضاراتها و ثقافاتها المتباينة و المتعارضة أحيانا أخرى، و قد يدوم هذا الحال أجيالا و أجيال، و قد يمتد إلى أمد غير مسمّى.

فمثلا، الشخص الغربي قد يرى في " الدين " عائقا دنيويا و مثبطا لسلوكياته و حاجرا أمام التطور الدّنيوي و أنّه سبب العصور المظلمة، بينما الإنسان العربي المسلم، يرى بأنّ الدّين هو أساس الخلاص في الدّنيا و الآخرة، و هو أساس كلّ صلاح و تقدم.

4. العلوم الاجتماعية (السّوسيولوجيا) برؤية ثقافية إسلامية عربية:

إذا كانت العلوم الاجتماعية تركز على خصائص الظّاهرة الإنسانية و ما يميّزها عن بقية الكائنات الأخرى، فإنّها تعترف بأنّ " الإنسان كائن ثقافي بالطّبع " أولا و قبل كلّ شيء، ثمّ تأتي خاصية كونه " اجتماعي بالطّبع " و ذلك لخمس خصائص : (بطء نمو الجسم ، سيادته في هذه الدنيا ، طول عمره ، الرموز الثقافية و الهوية المزدوجة (جسد و رموز ثقافية))، و بالتّالي كانت أهلية الإنسان من حيث هو كائن مثقف بالدرجة الأولى[2] .

و لما كان بحث الظواهر الاجتماعية يقوم على التأويل ، فإنّه بذلك يحتاج إلى معرفة مسبّقة بالظروف و الأطر الاجتماعية العامة للمجتمع أو الثقافة المراد دراستها ، لذلك لا يمكن أن نطبّق نظريات علم الاجتماع الغربي على مجتمعاتنا الإسلامية العربية ، لأنّ تلك النظريات هي وليدة ظروف و رموز ثقافية معينة و مرتبطة بقيم خاصة بتلك المجتمعات ، بينما مجتمعاتنا فهي رهينة ظروف خاصّة بها لا يمكن إخضاعها لقوانين لا تمت لها بصلة لا من قريب و لا من بعيد. كما أنّ العلوم الاجتماعية هي من ضمن العلوم الإنسانية الّتي تستوجب التأويل * لا التّفسير فقط.

---

[1] - د. محمود الذّوادي : الثقافة (بين تأصيل الرؤية الإسلامية و اغتراب منظور العلوم الاجتماعية) ، ص 15 .

[2] - د. محمد الذّوادي : الثّقافة (بين تأصيل الرؤية الإسلامية و اغتراب العلوم الاجتماعية) ، ص (15 ، 16) .

* حول إشكالية المنهج العلمي في العلوم الإنسانية يرى فيلهم " ديلتاي " ضرورة استقلالية مناهج العلوم الإنسانية نظرا إلى طبيعة موضوعها ، إلاّ أنّ ما يطلق عليه " منهجا " في العلوم الحديثة بقي هو نفسه في كلّ الدراسات، و لم يحرز " ديلتاي " تقدما كبيرا في هذا المجال .(انظر : هانز جورج غادامير: الحقيقة و المنهج : (الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية)، ترجمة : د. حسن ناظم، علي حاكم صالح، راجعه عن الألمانية : د. جورج كتّوره، دار أويا، ط1 ، 2007 م، ص ص (54،55).).

و نظرا لموجة العولمة الثّقافية الّتي تجتاح مجتمعاتنا فإنّ الجانب المعرفي و العلمي أيضا يخضعان لعولمة عارمة، لذلك فلابدّ من محاولة القيام بأمين هما :
أولا : تغيير عقلية و بنى مراكز و مؤسسات البحوث الاجتماعية و الجامعات من جهة حتى يكون هناك تعاون على مستوى كلّ الخلايا . و من جهة أخرى ، العمل على توحيد الأهداف حتى يتسنى الوصول إلى الهدف المنشود بلوغه .
ثانيا : حصول تغيير معرفي إبستمولوجي على مستوى عقل العالم الإسلامي العربي و العمل على التوجه الموحد وفق مرجعية إسلامية عربية واحدة لشحن كل القوى في اتّجاه هذا التغيير الهادف و المتعلق بطروحات المجتمع الخاصّ بنا حتى ندرسه بعقليتنا، و نحدث ما يعرف بتكامل علمي معرفي بين مختلف فروع العلوم (علم النفس، علم الاجتماع، البيولوجيا ، ... إلخ)[1]. فنحن الأهل لفهم عقلية هذا الفرد و ظروفه و مختلف مشكلاته الجوهرية، حتى تكون دراسته عميقة . فالشخص الجزائري الّذي ضحى من أجل وطنه يفهمه الباحث المسلم العربي بأنّه استشهاد، أما الشخص الأجنبي فقد يعتبر هذا مجرد جنون أو انتحار أو هروب من الواقع . أو مثلا الشخص المريض الّذي يعاني قبل مماته من مرض عضال، فالغرب رحمة به، يوءدونه بالموت الرّحيم (حقنة مميتة)، أمّا نحن المسلمين فنعتقد بأنّ هذا الفعل هو جريمة قتل لا تغتفر، أو انتحار، و نعتبر هذه المعاناة بمثابة صبر على ابتلاء يحتاج إلى الحمد و الدّعاء، و هو انتقاص من السيئات و الآثام الّتي اقترفها الإنسان في حياته هذه، و أنّ هناك بشرى في الآخرة ، و هذا كلّه لأنّنا نعتقد بحياة أخروية ما بعد الموت.

كما أنّ الفرد المسلم يشعر بنوع من القدسية في مجتمعه و الّتي استوحاها من الإسلام، و بالتّالي فيمكن لثقافته أن توظف في نقد و فحص العلوم الاجتماعية الغربية بغرض الكشف عن ايجابياتها و تجاوز مالا يتوافق و هويتنا.

و ممّا لا يصدق، أو لا يمكن تصديقه سواء في العالم الغربي أو الياباني أو العربي، أنّه لو طور شعب من الشعوب علم الكيمياء و الفيزياء، فإنّ نتائج هذه العلوم من آلات و منتوجات و تقنيات لا تكون أكثر ملاءمة ممّا هي عليه مع هذا الشعب الّذي أنتجها.

إنّ هذه الفكرة كانت تبدو أول ما قيلت (حوالي العقد الثالث من القرن العشرين) شبه مستحيلة التصديق، و لكن بعد أربعة عقود فيما بعد جاء من يثبتها ، فاتضح بأنّ العلم إنّما هو جزء من الثقافة و ما هو أبدا بالكونية الّتي يظهر عليها، فكل القوانين و الخبرات و الاكتشافات و الاختراعات إنّما هي خاضعة لمعطيات الثّقافة، هذا ما يقال عن العلوم البحتة، و لكن ماذا عن العلوم الّتي هي في أصلها رموز ثقافية و اجتماعية للمجتمع ؟

[1] - د. محمود الذّوادي: الثّقافة (بين تأصيل الرؤية الإسلامية و اغتراب العلوم الاجتماعية) ، ص (263 ، 264) .

إنّه لمن باب الأولويات أن تكون أساليب و مناهج البحث و التفكير في مجال الدراسات و العلوم الاجتماعية
و الإنسانية ذات الارتباط المباشر بحركية و ثقافة المجتمع مستقاة من صلب ثقافة المجتمع الأمّ [1].

و الجدير بالاهتمام هو تفعيل و تحفيز كلّ الفاعلين على هذه النّهضة الابتمولوجية في العالم الإسلامي و العربي بغرض النهوض بعلم اجتماع يحمل في جوهره و بين ثنايا معطياته البنى الأساسية للشّخصية الثّقافية و الاجتماعية الإسلامية و العربية ، حتى نستطيع الوقوف على الداء و تشخيص الدواء لمختلف الظواهر الاجتماعية الخاصة بنا، حتى ننطلق إلى الأمام، لأنّه (ما تأخر من ابتدأ) ، لكن أن نبقى ندور في حلقة مفرغة تائهين ، تطّبق علينا نظريات ليست من صلب ثقافتنا وشخصيتنا، كمن يلبس حذاء ليس على مقاسه ! فإنّه أمر غير منطقي ، فنحن الآن أمام مفترق طرق علينا أن نحدد (من نحن؟)، و(ماذا نريد ؟) ، و (ما هو الحلّ؟).

فعلينا أن نتّعظ و أن نستفيق من الاغتراب الّذي نعيشه في طيّات كينونتنا الّتي تعيش حالة من " اللامعنى " وسط هذا الزّخم الهائل من الثّقافات و الّتي لا يسود فيها و لا يبقى إلاّ الأقوى. إذ لم يبق وقتا هناك للانتظار ، أو النظر إلى الخلف، بل لابدّ من السير قدما و التقدم نحو آفاق المستقبل العريض و الواسع و معرفة ما هي أهم المشكلات الّتي يتخبط فيها عالمنا، و تحديد نسبة استفحال هذه الموبقات في مجتمعاتنا، و من ثمّ البحث عن الأسباب، لأنّه (إذا عرف السّبب زال العجب)، و بالتالي محاولة القضاء على الأسباب لاقتلاع هذه الآفات من جذورها و استئصال أسباب التخلف من رحم هذه الأمة الّتي كانت في وقت غابر سيّدة كل الأمم دون منازع، و لازالت تحمل بذور و مفاتيح النّجاح إذا وجدت من هم أهلا لاستنهاض الهمم و بلوغ القمم.

– فالعلوم الاجتماعية كنموذج فقط – إذا كانت تندرج ضمن العلوم الإنسانية الّتي تحتاج إلى التأويل و لا تكتف بالتفسير مثل العلوم التّجريبية، فإنّ هذا التأويل يحتاج إلى رصيد و مخزون ثقافي و أحكام قبليّة نعتمدها في مناقشة مختلف قضايانا،" فالأولى " بنا أن نكون نحن من ندرس قضايا مجتمعاتنا بثقافتنا الخاصة بنا، حتى تكون هذه الدراسة أقرب ما يكون إلى الصواب و الموضوعية العلمية.

خاتمة:

إذا استقرأنا الواقع الاجتماعي و وضع المثاقفة العربية – الغربية، فإنّنا نادرا ما نعثر على مواقف نقدية عميقة تأخذ بنقاط القوة و تتجاوز نقاط ضعف الفكر، بينما الإتيان بالبديل – و هو الأهم – فهذا ما لم نلمحه في الثقافة العربية

[1] - سعد البازعي : الاختلاف الثقافي و ثقافة الاختلاف ، ص (106 ، 107) .

و الإسلامية لحدّ الساعة و خاصة على مستوى العلوم الإنسانية عامة. و المقصود بالبديل هنا هو البديل المستوعب لخصائص الفكر المدروس و المنقود و المتجاوز ذلك إلى ما يعتبر أكثر انسجاما مع تراثنا الأم في الوطن الإسلامي العربي. لكن مهما يكن فلا يمكن تجاهل بعض المحاولات التي تعتبر بمثابة بصيص الأمل المتناولة لبعض الإشكاليات المنهجية [1] المتعلقة بمجال العلوم الاجتماعية.

[1] - سعد البازعي : الاختلاف الثقافي و ثقافة الاختلاف ، ص 308 .